الحضارة فى الفكر الاسلامى

السيد عبد الرحمن الجندى

معيد بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية

تمهيد :

« ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون » الأعراف ١٧٩

استعمال هذه الأدوات مدخل هام لموضوع الحضارة لأنه من أجل قيام الحضارات وتقدم المجتمعات لابد من فكر مستنير وحرية فى التعبير واختيار دقيق لنوع الحضارة فكم هناك من حضارات سادت ثم بادت . « ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذى الأوتاد ، الذين طغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد . فصب عليهم ربك سوط عذاب ، إن ربك لبالمرصاد » الفجر ٦ — ١٤

لأنه باستعمال هذه الأدوات سيتحتم علينا مباشرة إسقاط كل حضارة لا ترتبط بمنهج الله كائنة ما كانت هذه الحضارة وعلى رأس هذه الحضارات التى سوف تسقط من الحساب « الحضارة الفرعونية » .

لأنه ما دام إنسان العصر أيا كان جنسه أو لونه يحمل هذه الأدوات الثلاثة ولا يعطلها فسوف يسهل الاتفاق على معنى الحضارة التى يريدها الإسلام ومنهجها وهدفها وغايتها وهذه الأدوات غاية فى الوضوح .

(ا) قلب يفقه .

(ب) عين تبصر .

(ج) أذن تسمع حتى يبتعد الإنسان بهذه الثلاثة عن التقليد والتلقين والتبعية وهى آفات العصر فى القديم والحديث وفى السابق واللاحق فى القديم إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون .

أما فى الحديث فوسائل الإعلام المتطورة جعلت التوقف عن التفكير سهلا ميسرا لا يشعر الإنسان المعاصر بفداحته ولا يحس أنه قد تحول إلى جهاز ناقل « وبيغاء عقله فى أذنيه » .

فليظل إنسان العصر يلقن أنه ابن حضارة ، السبعة آلاف عام وما إلى ذلك قلت أم كثرت حتى بلغ الأمر إلى التساوق والتصادق والإشادة بحضارة الرومان ! !

الحضارة — الثقافة — المدنية

هناك اختلافات جذرية فى المعنى المراد من كلمة « حضارة » أو « ثقافة » أو « مدنية » وهذا الاختلاف راجع إلى أنهم أهملوا الاعتبارات التى أسلفناها فى التمهيد للبحث .

فالبعض يدمج معنى الحضارة والثقافة والمدنية والبعض يخص الحضارة بمفهوم غير الثقافة وهذا الاختلاف لا يشغلنا عن مفهوم الحضارة فى الفكر الإسلامى سواء تداخلت المعانى أم تفرقت اشتقت أم ترادفت

أسس قيام الحضارات الإنسانية :

إن قيام الحضارات فى الفكر الإسلامى لا يعنى انفصال المخلوق عن الخالق ومن هنا فقد كان من أهم أسس حضارة الإنسان « التوحيد » من يوم أن خلق آدم عليه السلام إلى يوم أن يقوم الناس لرب العالمين .

لماذا « التوحيد » ؟؟

لأن معنى « التوحيد » اتجاه الخلق إلى الخالق ولما كان الإنسان مخلوق فكل اتجاه لغير الخالق هو عبادة للمخلوقين سواء كان هذا المخلوق شجراً أم كوكباً أم نجماهوى أم شهوة شيطانا أم ملاكا . هرما أم سداً وإذا كانوا يقيمون حضارات اليوم على العلم أو الفن أو الابداع أو الأخلاق أو القوة أو السلطة فذلك ليس بدعا فمن قبل قامت الحضارات على مثل هذه الأسس فأين هي؟ وإلى أى ذهبت ولقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى كل خمط وأثل وشيء من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور ، سبأ : ١٥ ، ١٦ ، ١٧ .

مقومات العصرية الحديثة

وها نحن نرى أن أعظم مقومات « العصرية » الحديثة أربع :

١ — الاقتصاد .

٢ — التصنيع .

٣ — ارتفاع مستوى المعيشة « الرخاء » .

٤ — المجتمع (الأسرة — الدولة — النقابات — المؤسسات) كما أنهم يرجعون نظرة المعاصرة إلى النظرة التجريبية والممارسة . كل ذلك أو بعضه أو أكثر منه قامت عليه الحضارات البائدة التى لم ترتبط بمنهج الحق سبحانه وتعالى العليم بخلقه والمدبر لمخلوقاته ومن بيده ملك السموات والأرض ومن فيهن .

التكنولوجيا

كل يروج لسلعته وحضارته وهم يروجون الآن لما يدعون أنه للمعاصرة بما يسمونه « التكنولوجيا » وهذا فى حد ذاته نوع من القصور والتقصير والإفراط والتفريط وتلقين بالغ السوء لما يعنونه لمعنى الحضارة والمعاصرة .

إن أبسط معانى الحضارة والمعاصرة وأبرز علاماتها « الندية » وأن تكون على قدم المساواة مع معاصريك وأن تكون متميزاً ومتفوقا ، ولكن حقيقة ما تعنيه كلمة « تكنولوجيا » هى الاستخدام الأمثل للسلعة أو الصناعة أو الآلة أياً كانت . « فيديو » « كاميرا » « كمبيوتر » « تلفاز » « عدسة زوم » « أشعة حمراء » « تحت الحراء » إلى آخر طرق الاستخدام ولا يستطيع أحدأن يدعى أن الاستخدام فيه ندية أوفيه معاصرة أومقارنة أو صناعة أو قدرة على الابداع إمكانات لاختراع إنه تقسيم وتفكيك للانسان بين أن يكون ترساً مرفها للرأسمالية أو ترساً مطحونا للشيوعية وهو فى كلا الحالين مسلوب الارادة والفكر. مربوطا بحبل غليظ ووثاق حديدى . لافكاك منه وسموه « تكنولوجيا » .

الإنســـانية

الأمر الثانى من مقومات وأسس الحضارة فى الفكر الإسلامى هى « الإنسانية » ولانريد بإنسانية الحضارة ولا نعنى تعدد الغايات والاتجاهات والأهداف والعبادات والآلهة ولكن نريد بالإنسانية، أنها حضارة الإنسان الذى خلقه الله سبحانه وفضله على سائر مخلوقاته وهداه النجدين وأنزل عليه الكتب وأرسل إليه الرسل ونفخ فيه من روحه « وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » الحجر ٩٩ .

ومن هـذه الإنسانية ينبع الفكر الصادق واليقين الراسخ والعقيدة الراضية المطمئنة وتشرق الأرض بنور ربها بطاعة ذلك الإنسان ونشره الحق والخير بين الناس وإزالته للشر والفساد .

« والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » فالمعاصرة مرتبطة أشـــد الارتباط بالإنسان وبغير إنسانية المعاصرة لا نستطيع أن نسميها معاصرة وبالتالى لا نستطيع أن تسمى حضارة .

الهوية الإسلامية

« قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣ .

إن إنسانية المعاصرة والحضارة تستتبع الانتساب إلى الله الخالق وأى حضارة أو معاصرة فى يومنا لا تنتسب إلى الله فإنما تقطع بذلك ما بينها وبين الحياة والبقاء لأن بقاءها منوط بما تعتنقه من عقيدة وفكرة والعقيدة اليوم هى عقيدة التوحيد والهيمنة على الحضارات للعقيدة الموحدة وهى الإسلام .

« اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » من آية ٣ (المائدة) .

« ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين» فصلت : ٣٣ .

إنه لفخار وأى فخار أن يعتز الانسان بأن معاصرته وعمله وما يقدمه من عطاء وخير نابع من كونه مسلما لأن حضارة الإسلام رضيها الرب

لنادينا فكيف نسخطها بعد نزول كتابها وتوثيقها من رب العالمين وبعد أن أمر الرب بأن نكون من المسلمين وبعد أن أصبحت حضارتنا مهيمنة على كل الحضارات ومصدقة لكل جوانب الحياة فما ترفضه حضارة الإسلام يكون مرفوضا إلى الأبد وما تقبله يكون مقبولا وما نسقطه يكون فى أسفل سافلين .

الإلهية والربانية

أما « الأمر الرابع » فى مقومات الحضارة فى الفكر الإسلامى فهو الينبوع الذى تستمد منه الماء والغذاء والعافية ويضمن لها الهواء النقى والروح والريحان أنها الإلهية والربانية ربانية الغاية والوسيلة ولا نقصد بالإلهية والربانية أنها حضارة تتلقى وحيا أو تتنزل عليها ملائكة ولكن نقصد أنها حضارة تبتغى الربانية والإلهية « شرعة ومنهاجا » « وعقيدة وسلوكا » « وعملا — ونظاما » وبذلك فقط تنأى عن الانحراف والزيغ وعن الضلال والتشرذم وعن شرق وغرب، فلا تعرض عن ذكر ربها وتكون بذلك فى كنف الله ورعايته فلا تجوع ولا تعرى .

« قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا . فلم يزدهم دعائى إلا فرارا » وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا، ثم إنى دعوتهم جهارا . ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا . فقلت استغفروا ربكم أنه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا مالكم لا ترجون لله وقارا » نوح ٥ : ١٣ .

السيد عبد الرحمن الجندى
معيد بقسم الدعوة والثقافة الاسلامية